[18]

رِسَاْلَةٌ لِجِيْلِ الْتَّمْكِيْنِ فِيْ أَرْضِ الْحَرَمَيْنِ

(16 محرم 1433هـ)

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد؛

يقول الله سبحانه تعالى: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً} [الأحزاب].

إنّ لكل دعوة رجالاً يتحمّلون تبعاتها بخيرها وشرها، ويصبرون على كل ما يحل فيها من أذى حتى يتحقق لهم على أرض الواقع مفاهيم دعوتهم، وإن من أعظم الدعوات وأصدقها هي الدعوة إلى التوحيد الذي تكفّل الله سبحانه لهذه الدعوة بالظهور والبقاء، وسخّر لها رجالاً يحملونها ويقومون بها حق قيامها رسلاً وأنبياء، وكان خاتمهم سيد الخلق أجمعين محمد صلى الله عليه وسلم، ثم خَلَفه على تبليغ دعوته أصحابه عليهم رضوان الله، ثم حملها من بعدهم جيل بعد جيل يتحملون في سبيلها شتّى أصناف الابتلاء، وقد بيّن الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله سبحانه وتعالى تكفّل بحفظ دينه برجال يصطفيهم يقيمون هذا الدين ويحمون حماه حتى يرث الله الأرض ومن عليها، قال عليه الصلاة والسلام: "لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة" [رواه مسلم]، وإن من نِعم الله سبحانه وتعالى على المرء في هذا الزمان أن يصطفيه بأن يكون من هذه الطائفة المنصورة المباركة، طائفة التوحيد والجهاد، وأن أصحاب هذه الطائفة هم ممن قال فيهم صلى الله عليه وسلم: "إن من أشد الناس بلاء؛ الأنبياء، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم" [رواه الإمام أحمد]، فبلاء هؤلاء الرجال أعظم من غيرهم في ما يحملونه من إيمان وغيرة على محارم الله أن تنتهك، ولهذا أحببت أن أقف على قصة عظيمة وما فيها من فوائد لأهل التوحيد الغرباء في هذا الزمان، وكيف كان الابتلاء إذا لزمه الثبات والصبر يكون نتيجة له؛ الفرج والكرامة، وهذه القصة هي قصة أبو الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، وكيف مرّ في ابتلاءات عظيمة، وكان عاقبة صبره فيها؛ هي كرامات إلهية، التي يكرم الله بها الموحدين عندما يُظهرون صدقهم في دعوتهم وصبرهم على الأذى فيها، وأن من صفة دعوة التوحيد أنها تعادى عند ظهورها في أي مكان وفي أي زمان من كل مخالفيها، وفي الحديث قال ورقة بن نوفل للنبي صلى الله عليه وسلم: "لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي" [رواه البخاري]، ثم يهدي الله من يشاء بعدها، وهو العليم الحكيم، ولنا أسوة في إمام الحنفية قال عز وجل: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ

اللَّهِ مِنْ شَـيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْـكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْـكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْـكَ الْمَصِـيرُ} [الممتحنة].

فلقد نشأ إبـراهيم عليه السـلام في دولة كـافرة مشـركة بالله العظيم، ولها كل مقومـــــات الدولة من رئيس ووزراء ومجتمع وقوة، واصطفاه ربه للتوحيد، وملأ قلبه إيمانًا برب العالمين، وفي هذا المجتمع الوثني كان إبـراهيم يـدعو إلى التوحيـد، وينكر الكفر ويبيّن عجز آلهتهم التي يعبـدونها من دون اللـه، وهو ما زال فـتىً في بداية عمر شبابه، وأصـبح المجتمع يسـمع بـإبراهيم ويعرفـون عقيدته ومنهجـه، ولكنهم أبـوا أن يوحـدوا ويـتركوا عبـادة آلهتهم، فبدأ إبـراهيم عليه السـلام يـرتب عملاً باليد بعد الإنكـار باللسـان؛ ليزيل أكـبر منكر يعصى به الله سـبحانه، وهو الشـرك بالله بالآلهة التي لا تضر ولا تنفع بعدما قـرّر إبـراهيم أن يبـدأ العمل باليد وهو تكسير الأصنام، فلم يذهب مباشـرة إلى الأصـنام ليكسـرها، ولكنه بدأ بالترتيب لذلك.

دراسة الواقع:

إن تكسير الأصنام سـيأخذ وقتًـا، وسـيكون له صـوت، وسـيكون عليه حراسة وهم الســدنة، فلا بد أن يكــون هنـــاك وقت مناسب يتخلص من هــذه الإشـكاليات وهي الـوقت والصـوت والحراسـة، فكـــان لا بد من دراسة الواقع والحـــال، وأن لكل دولة أوقـــات أو مناسبات يكون فيها ارتخـاء أمـني؛ يسـتطيع الرجل التنظيمي فيه أن يحـدد هـذه الأوقـات عنـدما يكـون هنـاك دراسة للدولة سياسيًّا واجتماعيًّا وجغرافيًّا، فإبراهيم عليه السلام كان مجتمعه الوثني ذا طقـوس دينية متعـارف عليها في مجتمعـه، وتـؤدّى جماعيًّـا، وهي يوم عيد، فاختار هذا اليوم لتنفيذ العمـل، فعنـدما جـاء هـذا اليـوم طلب منه قومه الذهاب معهم لتأدية هذه الطقوس الدينية، فتعـذّر بعذر مقبول إيهامًا لهم {فَقَالَ إِنِّي سَـقِيمٌ} [الصـافات]، أي: إني مريض، {فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ} [الصافات]، فذهب القـوم إلى تأدية طقوســهم الدينية بعـــدما تركـــوا طعامًا لآلهتهم، وذهب إبــراهيم ليــؤدي عبــادة الأمر بــالمعروف والنهي عن المنكــر، {فَـرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ*مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ}، {فَـرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَـرْبًا بِـالْيَمِينِ} [الصـافات]، {فَجَعَلَهُمْ جُـذَاذًا إِلَّا كَبِـيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْـهِ يَرْجِعُونَ} [الأنبياء]، فكان الـوقت مناسـبًا، وفيه متسع للعمل بـأن يتم قبل أن ينكشف، وكان آمنًا من سماع الصوت حيث إن المكـان خالي من البشر، وليس هناك حـارس يحـرس أو رقيب، فـأتم عليه السـلام عملـه، ثم رتب طريقة للحـوار؛ لكي يوصـلهم إلى قناعاته العقدية وحقيقة دعوته التوحيديــــة، فجعل المعــــول معلقًا على كبيرهم -كبير الأصنام- الذي أبقاه حـتى يكـون شـاهدًا على عجـزه عن الـدفاع عن نفسه وعن غـيره، فلما عـاد القـوم إلى أصـنامهم ليتبركوا، وجـدوا أصـنامهم قد كُسّـرت، ولم يبق إلا كبـيرهم، وبـدأ السؤال {فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ} [الصـافات]، {قَـالُوا مَنْ فَعَـلَ هَـذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ} [الأنبياء] عظمًا وفضـاعةً بما حـلّ بهـا، فكـان الجـواب مباشــرة {قَـالُوا سَـمِعْنَا فَتًى يَـذْكُرُهُمْ يُقَـالُ لَـهُ إِبْرَاهِيمُ}[الأنبياء] فلم يقولوا إبــراهيم بن فلان، وإنما قــالوا فتًى {يُقَالُ لَـهُ إِبْـرَاهِيمُ} تصـغيرًا لحالـه، ولم يكن في ذلك الـوقت من

البشر أحد ينابذ الشرك ويدعو إلى التوحيد سوى إبراهيم عليه السلام، فأجمعوا عليه بالتهمة، {قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ} [الأنبياء]؛ ليسترهبوه عندما يرى أن القوم بأكملهم رئيس ومرؤوس قد اجتمعوا ليدافعوا عن آلهتهم التي حطمها عليه السلام فعندما بدأ الحوار والسؤال {قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ} [الأنبياء]، فأجاب برد يجعلهم بين خيارين؛ إما أن يصدقوا دعوته عليه السلام ويكذبوا أنفسهم، وإما أن يستكبروا قال تعالى: {قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ} [الأنبياء]، فكان نتيجة لهذا الجواب الذي رتبه ملازمًا لعمله أن {فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ} [الأنبياء]، أي: أنهم صدقوا إبراهيم وعلموا يقينًا أن دعوته الحق، ولكن {ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ} [الأنبياء]، لم يرد الله لهم الهداية، {قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [الأنبياء]، فبدأت العداوة لإبراهيم عداوة عقدية لا تعرف الرحمة؛ لأن العداوة العقدية يتقرب بها المعادي إلى مألوهه الذي فرض عليه العداوة، فكان الانتقام من إبراهيم بأعلى مقامات الانتقام والقتل؛ {قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ} [الأنبياء]، وهذا هو الابتلاء العظيم الذي يمر به الموحدون عندما يصدعون بالتوحيد ويدعون إليه، فماذا كان حال إبراهيم عليه السلام عندما هُدِّد بإلقائه في النار، هل تراجع وقدّم الاعتذارات؟! أم ضعف وطلب المحاورات والنقاشات؟! لم يقل ولم يفعل سوى الاحتساب والصبر، والإيمان والتوكل على الله عز وجل وحسن الظن به سبحانه، وأجمل ذلك كله في قوله عليه السلام كما نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (حسبي الله ونعم الوكيل)، {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران]، فإذا بالكرامة الإلهية من الله سبحانه وتعالى، أن خاطب النار مباشرة {قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ} [الأنبياء]، فأكرمه الله سبحانه بآية من آياته، وهي سلب خاصية الحرق التي في النار، فأصبحت النار بردًا وسلامًا لم يتأذَّ منها عليه السلام، فعندما يبتلى المؤمن الموحد من أجل توحيده ثم يصبر على البلاء ويحسن التوكل على الله، تأتيه الكرامات من الحي القيوم من الله سبحانه وتعالى بالفَرَج من حيث لا يحتسب؛ لأن الله جل وعلا يقول: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [يونس]، فعندما يرى المؤمن هذه الكرامات وهذه المعية من الله الحي القيوم يزداد إيمانًا وثباتًا على دينه ودعوته.

ثم انتقل إبراهيم عليه السلام من هذا الابتلاء الذي كان فيه قتل النفس إلى ابتلاءٍ آخر، فقد أخرجه قومه من أرضه وموطنه حتى لا يؤثّر على جيله وتنتشر دعوته، قال سبحانه: {وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ} [الصافات]، وكان هذا الخيار هو دائمًا ما يفعله الطواغيت مع الأنبياء والرسل من نوح إلى موسى عليهما

السلام قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} [إبراهيم].

فأخرجوه عليه السلام وكانت معه زوجته سارة، فوصل إلى دولة كافرة مشركة بالله تعالى، وكان لهذه الدولة قانونًا ونظامًا وضعه وشرّعه طاغوتهم، وكان من ضمن هذا النظام أن الرجل إذا دخل الدولة ومعه زوجته لا بد أن ينام معها الطاغوت، وإذا كان معه امرأة غير زوجته فلا يفعل شيئًا، وهذه صفة مشتركة في جميع الطواغيت؛ أي كسر كل معاني الغيرة والرجولة وأثرها من قلوب الرجال، حتى يصيّروهم عبيدًا في خدمتهم لا ينازعونهم في ملكهم ولا يجادلونهم في غيّهم وطغيانهم، فعندما رأى عسكرُ هذه الدولة إبراهيمَ معه زوجته سارة عليهما السلام، رأوا جمالاً قد وضعه الله فيها، وحسدوه عليها، وسألوه عنها، فقال لهم: هي أختي، كلمة يتقي بها شرهم على عرضه، ولكنهم عندما رأوا جمالها ذهبوا إلى طاغوتهم أخبروه وأغروه بها بقولهم أنها لا تنبغي لأحد غيرك، فخالف قانونه ونظامه الذي وضعه من أجل شهوته، وهذه هي طبائعهم في قوانينهم، وأنها لا تنفذ عليهم، فأمر أن يحضروها إليه فأخذوها من عند زوجها، وأدخلوها على الطاغوت الذي يشتهر عنه أنه زان وحرسه على بابه يحرسونه، فماذا كان من إبراهيم عليه السلام في هذا الابتلاء، وماذا فعلت سارة عليها السلام التي تربت على يدي إبراهيم إمام الحنفية، أما إبراهيم فرجع إلى الله الذي أنقذه من الموت وجعل النار بردًا وسلامًا عليه، وبدأ يدعو بأن يحفظ الله له عرضه وأن ينجي الله زوجه، وأما سارة فقامت تدعو ربها وتسأله سبحانه بتوحيدها وإيمانها برسوله وبحفظ فرجها إلا على زوجها أن يحفظها ويكفيها شر هذا الطاغوت، فكان الطاغوت كلما أراد بها سوءًا ومد يده إليها جمّده الله بالأرض وأيبس يده، فإذا به يتذلّل راجيًا من أمة الله المؤمنة الموحدة التي صانت فرجها إلا على زوجها بأن تدعو الله له أن يفك عنه ما هو فيه، وتكرر هذا الموقف ثلاث مرات كلما مد يده إليها بسوء جمّده الله وأيبس يده، وفي الثالثة أمر جنوده بعد أن وبّخهم أن يخرجوها ويعطوها خادمة تخدمها، فكانت المصطفاة هاجر عليها السلام بأن تكون خادمة لأكرم بيت وأعظم بيت قوامه التوحيد، فخرجت سارة من قصر ذلك الطاغوت وقد صان الله عرضها وحفظ عليها شرفها وأكرمها بجارية تخدمها وعادت إلى إبراهيم عليه السلام بهذه الكرامة من الله، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات، ثنتين في ذات الله، قوله {إني سقيم}، وقوله {بل فعله كبيرهم هذا}، وواحدة في شأن سارة، فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس، فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنكِ امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلمًا غيري وغيرك، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار أتاه فقال له: لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك، فأرسل إليها فأتى بها، فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها فقبضت يده قبضة شديدة، فقال لها، ادعي الله

أن يطلق يدي ولا أضـرك، ففعلت، فعـاد فقبضت أشد من القبضة الأولى، فقــال لهــا: مثل ذلــك، ففعلت، فعــاد فقبضت أشد من القبضتين الأوليين، فقال: ادعي الله أن يطلق يدي فلك الله أن لا أضرك، ففعلت، وأطلقت يده، ودعا الذي جـاء بهـا، فقـال لـه: إنك إنما أتيتــني بشـيطان ولم تـأتني بإنسـان، فأخرجها من أرضــي، وأعطها هــاجر، قــال: فــأقبلت تمشــي، فلما رآها إبــراهيم عليه السلام انصرف فقال لها: مهيم (أي: ما شأنك وما خبرك)، قــالت: خــيرًا، كف الله يد الفــاجر، وأخــدم خادمًــا" [رواه مســلم]، وفي روايـة، أنها قـالت عنـدما دخلت على الطاغية "اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط عليَّ الكافر" [رواه الإمام أحمد].

يُستفاد مما ذكر:

أن التوحيد والدعوة إليه لن تواجه بالقبول في مجتمع يخالفها، وأن الابتلاء الــذي ســيواجه الــدعاة الموحــدين لن يكــون أقل من القتل بـأعلى مقامـات القمـع؛ كما فعلـوا بـإبراهيم عليه السـلام عنــدما أرادوا أن يقتلـوه، وكـانت طريقة القتل حرقًا بالنـار، وقد بين الله سبحانه وتعالى أن الأجر على هـذا الابتلاء في آية عظيمة والصفقة الكريمة في كتابه سـبحانه بقولـه: {إِنَّ اللَّهَ اشْـتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَـهُمْ وَأَمْـوَالَهُمْ بِـأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَـاتِلُونَ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُــونَ وَيُقْتَلُــونَ وَعْــدًا عَلَيْــهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيــلِ وَالْقُــرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْــدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِــرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِـكَ هُـوَ الْفَـوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبـة]، وقد بين صـلى الله عليه وســـلم أن القتل من أجل لا إله إلا الله وإعلاء لكلمة الله لا يجد منها الشهيد إلا كما القرصـة، عن أبي هريـرة رضي الله عنـه، أن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم قـال: "ما يجد الشـهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم مسّ القرصة" [رواه الإمـام أحمـد]، ومهما كانت بشاعة القتل التي يقتل فيها الشهيد.

وأن الموحـدين لن يعيشـوا دعـاة إلى توحيـدهم بأمـان لا على أنفســهم ولا على أعراضــهم؛ لأن أعــداء التوحيد لا يرقبــون في مؤمن إلاًّ ولا ذمّة، ولا يعرفون كرامة ولا آدابًا للحرب، وقد يتعـرض أعراض الموحدين للابتلاء للضـغط عليهم وإضـعافهم عن دعـوتهم وصدهم عنها، أو بأقل الأحـوال السـكوت عن إظهـار دينهم، ولكن النجاة من هذه الابتلاءات هو الثبات والصبر والدعاء.

وإن من عجيب هـــذه القصة ما دعت به ســـارة عليها الســـلام بإيمانها بالله ورسوله وحفظ فرجها إلا على زوجها فسبحان الله، كيف كان حفظ الفروج من العبادات التي يتقرب ويتوسل بها إلى الله.

وختامًا:

هذه صور الابتلاء الــتي يمر بها الموحد في نفســه، وقد تختلف بين قتل وأسر وكســـر، وفي عرضـــه، وهـــذا هو الطريق لإقامة التوحيد، ولن يقوم الدين إلا بهذا، قال تعالى: {وَقَـاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا

تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَـوْا فَـإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُـونَ بَصِيرٌ} [الأنفال].

وسوف يكون بإذن الله مقـال آخر ملحق لهـذا الموضـوع، والله المعين.

نسأل الله أن يثبتنا على دينه وأن ينصر بنا شريعته وأن يعيننا على تبليغ دعوته وتوحيده.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

